

الأـدـبـ 22-05-2011

1360- الدين لله والوطن لله والجحيم لله

تعتقة الوفد

يكاد لا يوجد شعار أكثر شيوعا حتى التقديس، خصوصا هذه الأيام، من شعار "الدين لله، والوطن للجميع"، اللهم إلا شعار "الإسلام هو الخل" وكلها تحتاج إلى مراجعة ومراجعات.

ظل هذا الشعار غالباً منذ ثورة 1919 حتى أول أمس في لقاء اللواء أركان حرب اسماعيل، واللواء أركان حرب محمود حجازي رئيس هيئة التنظيم والإدارة وفداً من رجال الدين المسيحي وأقباط المهجر. وخرج الجميع سعداء وهم يرمغون هذا الشعار وخلصوا!.. كم اختلفت مع شيخي نجيب محفوظ حول تقديره لهذا الشعار، ولم أكن أعرف ارتباطه بثورة 1919، لكنني كنت أعرف ارتباط شيخي بسعد زغلول، فالنحاس، وكما فشل شيخي في إقناعي بالديمقراطية إلا باعتبارها - مرحلياً - أحسن الأسوأ، فشلت بدورى في إقناعه بأن حياتنا ليست "تورتة" نقسمها بيننا وبين الله (سبحانه) فتحتفظ بالوطن، ونتقدم إليه بـ...، أو نقدم له: الدين!!

المصيبة أن هذا الشعار الذي نشأ مصرياً، وربما وفدياً، وتحديداً في مواجهة مستعمر أراد أن يلعب لعبه "قرق تسد" أصبح هو الشعار المفضل عند كل من يتصور "أنه الخل"، كلما وقعت مصيبة سوداء تكاد تصل إلى حد الكارثة، التقى الكبار وأحياناً الصغار، مسؤولين رسميين، وقادة أديان طيبون، وهات يا أحضان، وهات ياقبلات، وهات يا "الدين لله والوطن للجميع" وينفض السامر راضين أو مهلين أو مدررين، ولا يفيقون إلا والمصيبة التالية تعلن نفسها بنفسها التحدى وأكثر، ثم إنه تم مؤخراً تدعيم هذا الشعار بتسبيحات مساعدة مثل "الديمقراطية هي الخل"، و"إنجيل حقوق الإنسان" (المكتوبة والمطبقة انتقامياً) هو الخل، لتصبح هذه المقايس الجديدة بمثابة "الخلل والخرام"، حسب "فقه دين العولمة الجديد" مع اختلاف أنيبياته من بوش إلى أوبياما إلى ساركوزي مع إخفاء شياطين الشركات العابرة، والقوى المالية الغادرة، وأخيراً تسبيحات جديدة قدم بها صلوات أى اجتماع عصرى، مثل أن تردد كلمة "الموطنية" تسع وتسعين مرة أو

تسحب باسم "الدولة المدنية" ثلاـث وـثـلـاثـين مـرـة ، بـخـاصـة صـلـواتـ صـنـدـوقـ القـهـرـ الدـولـيـ أـيـنـ يـقـعـ هـذـاـ الشـعـارـ منـ وـظـيفـةـ الدـيـنـ الـحـقـيقـيـةـ وـكـدـحـ الإـبـدـاعـ إـيـانـاـ خـوـ وجـهـ اللهـ .

الفكرة الأساسية:

مـخـتـلـفـ الـحـيـاةـ اـخـتـلـافـ نـوـعـيـاـ إـذـاـ ماـ كـانـ اللـهـ سـبـحـانـهـ هوـ مـحـورـ الـوـجـودـ الـبـشـرـىـ بـالـأـخـلـىـ وـالـخـارـجـ ، بـكـلـ التـفـاصـيلـ ، بـعـنىـ التـوـحـيدـ الـذـىـ جـاءـ فـيـ الإـسـلـامـ ، وـرـبـاـ بـعـنىـ التـنـاـولـ فـيـ الـمـسـيـحـيـةـ ، كـتـبـتـ فـيـ ذـلـكـ فـيـ مـقـالـ قـدـيمـ (ـالـهـارـامـ : 14ـ مـاـيـوـ 1999ـ)ـ أـوـضـعـ مـعـنىـ "ـوـجـودـ اللـهـ فـيـ الـوـعـىـ الـبـشـرـىـ"ـ وـلـمـ أـحـاـوـلـ أـنـ اـسـتـهـدـىـ بـنـصـوصـ دـيـنـيـاـ خـشـيـةـ الـخـرـجـ ، فـاسـتـلـهـمـ بـعـضـ الإـبـدـاعـ ، أـحـدـ أـمـمـ تـجـلـيـاتـ الـإـيمـانـ ، قـلـتـ :

.... تـناـولـ دـيـسـتـوـيـفـسـكـيـ حـضـورـ اللـهـ سـبـحـانـهـ فـيـ وـعـىـ الـاخـوهـ كـارـماـزـوفـ وـاحـدـاـ لـيـعـلنـ بـطـرـيـقـ مـبـاـشـرـ اوـ غـيرـ مـبـاـشـرـ أـنـ هـذـاـ التـغـيـرـ حـضـورـ اللـهـ فـيـ الـوـعـىـ هوـ أـسـاسـىـ فـيـ بـنـاءـ الـشـخـصـيـةـ ، وـمـنـ ثـمـ فـيـ تـحـديـدـ نـوـعـيـةـ الـحـيـاةـ ، بـحـضـورـهاـ الـآنـ فـيـ الـفـعـلـ الـيـومـيـ ، يـسـتـوـىـ فـيـ ذـلـكـ تـسـلـيمـ إـيـفـانـ الـمـلـحـدـ بـأـنـهـ .. "ـإـذـاـ فـقـدـتـ إـلـيـانـيـهـ هـذـاـ إـلـيـقـادـ بـالـخـلـودـ فـسـرـعـانـ مـاـ سـتـغـيـضـ هـمـيـعـ يـنـابـيعـ الـبـهــ (ـوـ)ـ أـكـثـرـ مـنـ ذـلـكـ أـنـهـ لـنـ يـبـقـيـ شـئـ ، يـعـدـ مـنـافـيـاـ لـلـأـخـلـاقـ ، وـسـيـكـونـ كـلـ شـئـ مـبـاـحـاـ ، اوـ رـأـيـ دـيـنـيـ أـنـهـ : أـنـكـ إـذـاـ أـنـكـرـتـ اللـهـ تـنـتـهـىـ إـلـىـ زـيـادـهـ سـعـرـ الـلـحـمـ .. أـخـ."ـ

كـذـلـكـ ظـلـ بـجـيـبـ حـفـوظـ يـلـحـ حـوـلـ هـذـهـ الـقـضـيـةـ بـكـلـ إـصرـارـ وـمـثـابـرـةـ مـنـ أـوـلـ زـعـبـلـاوـىـ حـتـىـ الـخـرـافـيـشـ إـلـىـ أـصـدـاءـ السـيـرـةـ ، مـارـيـنـ بـ..ـ"ـالـطـرـيـقـ"ـ دـوـنـ إـسـتـبعـادـ أـوـلـادـ حـارـتـنـاـ ، وـصـرـيـحاـ فـيـ صـرـخـةـ عـمـرـ الـحـمـزاـوـىـ فـيـ نـهاـيـةـ الـشـحـاذـ ، وـقـدـ خـلـصـتـ مـنـ نـقـدـ لـهـ فـيـ مـعـظـمـ ذـلـكـ بـأـنـ وـصـلـتـنـيـ رسـالـتـهـ وـهـوـ يـقـوـلـ: إـنـ وـجـودـ اللـهـ هوـ ضـرـورةـ حـيـويـهـ لـيـكـونـ الـبـشـرـ بـشـرـاـ ، وـأـنـ هـذـهـ الـقـضـيـةـ يـسـتـحـيلـ أـنـ تـكـوـنـ جـرـدـ مـسـأـلـةـ مـنـطـقـيـةـ شـبـهـ عـقـلـيـةـ ، أـوـ حـتـىـ أـنـ تـخـتـزلـ إـلـىـ اـسـتـلـامـ دـيـنـيـ غـيـبـيـ.

ولـنـ اـسـتـطـرـدـ بـعـدـ ذـلـكـ فـشـرـحـ هـذـهـ الـمـسـالـةـ حـتـىـ لاـ أـخـرـجـ عنـ هـدـفـ الـمـقـالـ الـأـصـلـىـ الـذـىـ يـقـوـلـ :

إـنـيـ أـزـعـمـ أـنـ هـذـهـ الـمـسـالـةـ : "ـوـجـودـ اللـهـ سـبـحـانـهـ كـمـتـغـيـرـ فـاعـلـ طـوـلـ الـوقـتـ"ـ هـىـ الـجـوـهـرـ الـذـىـ يـنـبـغـىـ أـنـ نـعـتـىـ بـاستـعـمالـ الـأـدـوـاتـ الـأـخـدـثـ لـبـرـجـتـهـ بـطـرـيـقـهـ تـمـيـزـنـاـ مـنـ، وـفـيـ نـفـسـ الـوقـتـ قـدـ تـضـيـفـ إـلـىـ إـحـتـيـاجـاهـمـ مـاـ يـعـكـرـ أـنـ يـنـقـذـهـمـ مـنـ أـوـهـاـمـهـمـ حـولـ الـإـكـتـفـاءـ بـالـخـرـصـ عـلـىـ الرـفـاهـيـةـ وـالـتـنـافـسـ الـكـمـيـ الـمـتـنـامـيـ، وـالـإـسـتـغـنـاءـ عـنـ اللـهـ بـأـثـارـهـ الـفـنـيـةـ فـيـ إـبـدـاعـهـمـ؟ـ إـنـ الـحـيـاةـ الـبـشـرـيـةـ تـخـلـفـ نـوـعـيـاـ إـذـاـ كـانـ اللـهـ مـوـجـودـاـ فـيـهـاـ طـوـلـ الـوقـتـ عـنـهـاـ إـذـاـ مـاـ أـنـكـرـتـاهـ أـوـ أـبـعـدـنـاهـ أـوـ حـدـدـنـاهـ أـوـ وـقـعـتـ لـقـائـهـ أـثـنـاءـ الـعـبـادـاتـ اوـ اـيـامـ الـأـحـادـ أـوـ الـجـمـعـ!ـ وـلـعـلـ هـذـاـ فـيـ رـأـيـ،ـ هوـ الـفـرـقـ بـيـنـ الـإـسـلـامـ الـمـوـقـفـ الـوـجـودـيـ،ـ وـبـيـنـ الـإـسـلـامـ الـمـقـرـبـ،ـ اوـ الـمـخـتـزلـ،ـ اوـ الـإـسـلـامـ الـمـسـتـعـملـ مـنـ الـظـاهـرـ لـتـوـلـ سـلـطـهـ،ـ اوـ الـمـارـسـةـ الـوـصـايـهـ عـلـىـ سـلـوكـ وـإـبـدـاعـ الـبـشـرـ.

أنه أتصور أن المسألة كالتالي:

هناك نوعان أساسيان من الوجود البشري يمكن أن نتحقق بأيهما عند المتدين (أو من يدعى ذلك)، وأيضاً عند غير المتدين (أو الذي يتصور ذلك):

النوع الأول هو النوع الذي يقف شاخاً فخوراً حتى الغرور، ليتنبه عنده أعلى نقطة فوق هامة الإنسان وقد زانه عقله ولعله أدواته (وهو ما يمثله اغلب ما يسمى الحضارة الغربية الشمالية التكنولوجية، الخ).

والنوع الثاني هو الذي مثله الحضارات الإيمانية التوحيدية التناصية التابعة الممتدة إلى ما لا يجد من وجودها عقل ظاهر، أو وصاية آلة محدودة، أو قهر سلطة.

وأتصور أن وجودنا الممتد "من المصريين" من آلاف السنين مشدوداً بالخلود دائراً حول التوحيد، مازال يمثل أو يمكن أن يمثل النوع الأول، كذلك أتصور أن كل المؤمنين من كل الأديان، ذلك الإيمان الفطري الأول الذي يتجلى في مارسات دينية مختلفة، متضفرة، وضامة في آن، ينتمون أيضاً إلى هذا النوع الأول من الوجود، أما النوع الثاني: فهو ذلك النوع الذي مثله الحضارة الشمالية الغربية قبل إفاقتها مؤخراً وهو نوع لامع البريق وافر الرفاهية كثير الواثقين المكتوبة رائع الإنجاز رضي بواقعية آنيه أعمقته من الإفراج عن وعيه الأعمق الممتد عبر البشر وغير الأكوان.

فهل يمكن أن يظل الإنسان إنساناً إذا هو غادر في صياغة حياته المعاصرة بمزيد من التقنيات والإمكانات الجديدة، وفي نفس الوقت راح يُهُوش هذه الحقيقة، "أن الله موجود"، تهميشاً يهدد بفقد التوازن فالإنقراض، أم أنه قد آن الأوان لإفادة شاملة في الوقت المناسب لكي نعد برجياتنا وفن نضع هذا المتغير الرائع (أن الله موجود) في الحساب؟

أتوقف هنا مضطراً لأتساءل :

هل يخطر على بال الذين يتلمظون لتولى السلطة في هذه المرحلة كيف يمكنهم أن يحققوا لنا نوعاً من الحياة تليق بما هو التوحيد الحقيقي، والامتداد من جبل الوريدي نحو كرسيه تعالى الذي وسع السماوات والأرض؟ فإن لم يكن هذا الأمر هو ما يفهمون في المقام الأول، فلماذا يحرضون كل هذا الحرص على تولى السلطة وكيف يكون الإسلام هو الحل؟

الإنسان المعاصر أحوج ما يكون إلى استعادة التوحيد الحقيقي والامتداد الحقيقي والإيمان الحقيقي الذي هو جوهر الإسلام الحقيقي؟

صحيح أنه لم يعد هناك مجال لهبوط الوحي على نبي جديد على الرغم من ظهور ديانات شاذة ومريرة كل يوم في كل مكان يسمح بذلك، لكن الأصح أننا إستبعداً فاعلية الأديان

القائمة بالجمود أو بالإنكار فلم تعد تصلح - بصورتها المختزلة والمشوهة - أن تصبح فعلاً يومياً محدد به ما حاولت بيانه في هذا المقال من اختلاف نوعية الحياة إذا إنفتحت عنده هامة الإنسان الفرد أو الإنسان النوع، عنها إذا إمتدت بلا حدود عبر الأكوان سعياً إلى وجه الله طول الوقت.

أن إستبعاد حضور الله سبحانه فيوعي البشر طول الوقت ليس فقط خطيئة وخسارة من انكروه تعالى، أو من همشوه، بل أن هذا الإستبعاد ساهمت فيه بعض الممارسات الدينية السطحية، خاصة المركزة على امتلاك مقابليد السلطة دون استعادة التوحيد، وقهـر الشرك بكل تحلياته، وإطلاق كـدح الإبداع في العقل البشـرى من الفعل الـيـومـي العـادـى حتى تحـليـات الإبداع.

- "ولقد خلقنا الإنسان وتعلمنـ ما تـؤـسـوسـ به نـفـسـه وـتـخـنـ أـقـرـبـ إـلـيـهـ مـنـ خـيـلـ الـوـرـيدـ" (آلـيـةـ 16 سورـةـ قـ)

- "أـنـاـ فـيـهـمـ وـأـنـكـ فـيـ لـيـكـونـواـ مـكـمـلـيـنـ إـلـيـ وـاحـدـ، وـلـيـعـلـمـ الـعـالـمـ أـنـكـ أـرـسـلـتـنـيـ، وـأـحـبـتـهـمـ كـمـاـ أـخـيـثـنـيـ" (إـنجـيلـ يـوـحـنـاـ 17: 23)